

وصف وضع المجتمع الاستعماري لدى كتاب الاستعمار

لويس لوكوك وشارل هاجل نموذجا

Describe the situation of colonial society by colonial writers

Louis Lecoq and Charles Hagel as a model

حورية موالفي^{1*}

¹ جامعة الجزائر2، أبو القاسم سعد الله، houria.moualfi@univ.alger2.dz

Moualfi Houria^{1*}

Université d'Alger2/Abou Elkassem Saâdallah

تاريخ النشر: 2024/10/31

تاريخ القبول: 2023/11/02

تاريخ الاستلام: 2024/01/18

ملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية علاقة الاستعمار بالأدب أو ما يسمى بالأدب الاستعماري، من خلال التعرض إلى تحديد دور كتاب الاستعمار الفرنسي المستقرين بالجزائر في دعم أطروحة الجزائر الفرنسية وتكريسها سرديا، ومن خلال إبراز أعمالهم الأدبية ونشاطاتهم المكثفة لإرساء معالم أدب جديد يهتم بقضايا طائفة المستوطنين من الأقدام السود الأوروبيين.

ولأجل ذلك أنشأوا حركة أدبية فكرية تحت اسم "التجزؤ"، انضمت إليها نخبة من فرنسيي الجزائر المثقفين والأدباء المتجزئين الذين نشروا بحماس كبير الفكر التوسعي الاستعماري في كتاباتهم منهم لويس لوكوك وشارل هاجل.

الكلمات المفتاحية: لويس لوكوك، شارل هاجل، حركة التجزؤ، الجزائر الفرنسية، السرد الاستعماري.

Abstract:

This research article aims to show the role of French colonial writers in supporting the "French Algeria" project, through literary works and their intensive activities to establish the parameters of a new literature concerning the problems of the settlers so-called pieds noirs, where they established a literary and intellectual movement under the name of "Algérianisme" joined by a group of writers who published colonial thought in their writings, including Louis Lecoq and Charles Hagel .

Keywords: Louis Lecoq, Charles Hagel, Algérianisme, French Algeria, Colonial Writers.

* حورية موالفي.

1- مقدمة:

في خضم التحولات الكبرى التي أنتجت الظروف السياسية وفي مقدمتها الحرب العالمية الأولى على الصعيد العالمي، وشهدتها الجزائر على الصعيد المحلي أبرزها الانفصال السياسي عن فرنسا المتروبوليتانية، فكرت جماعة من الكتاب المستوطنين، خصوصا الذين مارسوا مهنة التعليم، المساهمة في مجال الأدب لتكريس الإيديولوجيا الاستعمارية المصرة على الحفاظ على الجزائر كمقاطعة فرنسية، وارتأت إنشاء حركة أدبية فكرية تبني هذه الأطروحة أطلق عليها "التجزؤ"، التفت حولها جماعة من الكتاب المستوطنين الأوروبيين يذكر منهم على سبيل التخصيص لويس لوكوك Louis Lecoq وصديقه شارل هاجل Charles Hagel.

على هذا الأساس تُطرح في هذا البحث الإشكالية الأساسية وهي: ما قضايا المجتمع الاستعماري التي ركزت عليها أعمال الكاتبين في إطار حركة التجزؤ؟ وتتفرع عنها تساؤلات نحو: ما أهم المبادئ التي وضعتها حركة التجزؤ، وسارت عليها من أجل تأسيس جمالية جديدة في الجزائر المستعمرة بعد الحرب العالمية الأولى؟

من هو الأب الروحي لهذه الحركة الأدبية؟ ومن المؤسس الفعلي لها؟
ما دور الكاتبين لويس لوكوك وشارل هاجل في تجسيد أسس الحركة التي كانت تسعى لخدمة إيديولوجيا الاستعمار عن طريق الاعتماد على الجنس السردى على وجه الخصوص؟

5- المنهج (مناهج) الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على النصوص السردية التي كانت آليات فعالة في يد الكتاب لتسويق إيديولوجيا الاستعمار في القرن العشرين من عهد الجزائر المستعمرة، والاستعانة بآليات الوصف والتحليل لتوضيح أهم المسائل المطروحة، وتهدف إلى بيان قضايا المجتمع الاستعماري التي كانت قد شغلت بال الكتاب المتجزئين المنضوين تحت راية هذه الحركة الأدبية، وكشف خطتها الإيديولوجي السائد في ثناياها.

1. تأسيس حركة التجزؤ:

1.1. السياق السياسي لظهور الحركة:

بناء على الحكم الذاتي الذي منح في أواخر القرن التاسع عشر لأوروبيي الجزائر الذين حصلوا على الجنسية الفرنسية، أعلن هؤلاء الكتاب عن تبني جمالية مستقلة عن كتاب المتروبول لها خصوصيتها، هي الجمالية الاستعمارية الممثلة للجمالية الأوروبية وأوضاعها في ظل الحكم الفرنسي تماشيا مع الاستقلال الذاتي الذي فصل مقاطعة الجزائر عن فرنسا.

وفي هذا السياق السياسي المتشنج بين حكام المستعمرة والمتروبول حول قضية الامتيازات الممنوحة لغير الفرنسيين من الأعراق اللاتينية المستقرة بالجزائر حرص الكتاب المستوطنون على تأسيس أدب جزائري خاص بفرنسيي الجزائر في البداية، ومن رضي من الكتاب الأهالي (المتطورين) الموالين التعايش معهم وتبني مدينة الغرب، وسعى إلى الاندماج فيهم رغبة في التقرب منهم لخدمة توجهاتهم السياسية، وهم من الذين

تعلموا في المدارس الاستعمارية، إذ عبروا عن موقفهم الصريح من الثقافة الفرنسية التي فرضها الاستعمار عليهم، فلا مناص من الهروب من تعلم لغتها، والعمل والتطور إلا في إطارها.

اهتم هذا الأدب الجديد بقضايا العرق اللاتيني أو الجزائري الجديد (أطروحة لويس برتران Louis Bertrand) الأب الروحي للحركة الذي عمل جاهدا على إحياء الهيمنة الرومانية والتراث اللاتيني القديم بالجزائر لتأسيس فكرة "إفريقيا اللاتينية"، وأبان عن عنصريته الشديدة ضد العرب والمسلمين في كتابه "السراب الشرقي". ويقصد بهذا العرق الجديد هم الأقدام السود الذين استقروا بالجزائر المستعمرة سواء كانوا مولودين فيها خلال الاحتلال أم جاؤوا إليها لاحقا، على مراحل، في منتصف القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين من مختلف الدول الأوروبية المنتمية إلى العرق اللاتيني لتوطيد دعائم المشروع الاستعماري الاستيطاني، وللإقامة بما قصد تكثيف عددهم مقابل تنامي طائفة الأهالي بشكل مذهل، سيما أن النخبة المسلمة رفضت النظام العنصري الاستعماري، فتصدى له المثقفون الجزائريون على رأسهم أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فازداد تمسك الطائفة المسلمة بثقافتها الأصلية ضد الغزو الثقافي الفرنسي، وطالب الوطنيون بمزيد من المساواة في الحقوق المدنية عقب الحرب العالمية الأولى، وقد شرح مولود فرعون هذا التمسك في قوله موجها خطاب اللوم وتحميل المستوطنين الأوروبيين المسؤولية: «الفرنسيون بقوا بعيدا. بقوا جانبا بازدراء. ظل الفرنسيون أجنب. لقد اعتقدوا أن الجزائر كانت هم. الآن بعد أن اعتبرنا أنفسنا أقوياء بما فيه الكفاية أو نعتقد أنهم ضعفاء بعض الشيء، نقول لهم: لا يا سادة، الجزائر هي نحن. أنتم غرباء في أرضنا.

ما الذي يتطلبه الأمر لكي يحب بعضنا بعضا؟ أن يتعرف بعضنا على بعض أولاً، لكننا لا يعرف بعضنا بعضا. [...] يأتي الشر من هناك. لا حاجة للبحث في مكان آخر. لمدة قرن من الزمن، كنا نفرك أكتافنا دون فضول، كل ما تبقى هو جني هذه اللامبالاة المدروسة التي هي عكس الحب» (Feraoun, 1962, 187).

1.2. الكتاب "المتجزئون" Algérienistes

أراد هؤلاء الكتاب "المتجزئون" Algérienistes أن يجعلوا من الحياة اليومية الجديدة لكبار المستوطنين والبسطاء موضوعات جوهرية لتبرير وجودهم الذي أحرزوه بالقوة، ومن ثمة الدفاع عن مكاسبهم وامتيازاتهم ضد العرب كأعداء ألداء، والعربي الذي يعامل كآخر، وتمثيل الجزائر المستعمرة في مختلف أعمالهم لخدمة مصالح فرنسا الإمبريالية، فخصصوا لها صحيفة "إفريقيا" La Revue Afrique منذ 1924 المدعومة من كبار المستوطنين لنشر إبداعاتهم التي غلب عليها التكرار النمطي لبعض الصور القديحة للعرب والمسلمين، والأحكام الجاهزة التي تعكس دونية الأهالي أمام تفوق الأوروبي وفق تصور المركزية الغربية التي تدعي دونية غير الأوروبيين، واستخدامها للدعاية للإمبريالية الاستعمارية كما أوضح لوكوك في مقال نشره على أحد أعمدتها بعنوان "الأدب الإمبريالي وحركة التجزؤ Algérienisme" عام 1924 ولطمس هوية الشعب الجزائري ومحو ذاكرته. ولأجل تخفيف نشاطاتهم وجهودهم وتثمينها أنشأوا جائزة أدبية أطلق عليها "جائزة الجزائر الأدبية الكبرى" في 1921. وعليه فقد اعتمدت هذه الحركة الأدبية على ثلاث آليات

للدعاية وتأييد المشروع الاستعماري الفرنسي هي: "جمعية الكتاب الجزائريين A.E.A " Association des Écrivains Algériens و"مجلة إفريقيا" و"الجائزة الكبرى للأدب الاستعماري".

1.3. التعريف بالكاتين لوكوك وهاجل:

لويس لوكوك من المستوطنين المولّدين، أبوه فرنسي وأمه إسبانية، ولد في مدينة الجزائر عام 1885 لأسرة متواضعة وتوفي عام 1932، أنشأ مع الكاتب بيير بينوا "المجلة المتوسطة" La Revue Méditerranéenne في 1905، ونشر مقالاته في المجلة الإفريقية بين 1919 و 1931. يعد ثاني كاتب استعماري من فرنسيي الجزائر انتخب مديرا على رأس "جمعية الكتاب الجزائريين"، التي أنشأها مع الرئيس الفعلي للحركة روبر راندو Robert Randau في 1921 وصديقه شارل هاجل. إنه نموذج للكاتب الاستعماري الاشتراكي الذي التزم بالأسلوب الواقعي البعيد عن مناخ الغرائبية في وصف مجتمع الجزائر الاستعماري ما بين الحربين العالميتين بكل شرائحه المتعددة، وتحدث عن طوائفه المتعارضة والمركبة من عناصر غير متجانسة تألفت من المستوطنين الأوروبيين، واليهود والعرب والبربر، والمسيحيين والمسلمين. إنه أحد أهم الأعضاء في جماعة الكتاب المتجزئين الذين مزجوا الأدب بالسياسة، وتبنوا أهداف الإمبراطورية الفرنسية، متأثرين بأطروحات الاستعماري لويس برتران. وفي هذا الصدد أوضح جان بوميه العلاقة الوطيدة بين الأدب والسياسة لبلوغ الغايات في الحياة بقوله: «الأدب والسياسة فنان توأمان، واللذان يعملان عند الكاتب مثلما عند السياسي على المصادر نفسها: الفكر» (Lanasri, 1995, 125).

كان لوكوك من أبرز الكتاب الاستعماريين الذين شغلتهم قضية الاستيطان والارتباط بالأرض كأولوية من الأولويات التي تقوم عليها إيديولوجيا الاستعمار، واعتبار الجزائر ملكا للمستوطن الأوروبي الذي قدم تضحيات جلية في سبيل تطويرها وإخراجها من ظلمات الانحطاط إلى عصر التمدين بواسطة الرسالة الحضارية الغربية التي قدمها الفرنسيون للأهالي بالسلاح مقابل احتلال أرضهم، واغتصاب ثرواتهم، واستعبادهم في كل مجال.

يشرح الكاتب هذا الطرح في أبيات شعرية منشورة في مجلة إفريقيا عام 1933:

« نحن بينكم باسم قوتنا

باسم كبريائنا الفظيع ومصيرنا

من أجل إخضاعكم لعبودية الألم الآري

التي تؤدي إلى الموت أشد سرعة من موتكم» (Khelouz, 2007, 14).

ساهم لوكوك بحرص كبير وشغف شديد في تجسيد إيديولوجيا الاستعمار الفرنسي بالجزائر تحت ظل حركة التجزؤ التي قدمت للجمهور كفرع من الآداب الإمبراطورية، والتي تتغنى بعظمة فرنسا وسياساتها التوسعية في عمله الموسوم 1924 «La littérature impérialiste et l'Algérianisme» ،

وتمثيلها بأعمال كثيرة ومتنوعة، فكتب في الشعر، وفي القصة، وفي الرواية، وفي النقد إلى جانب عديد المقالات الفكرية، يذكر من أهم أعماله:

Cinq dans ton œil خمسة في عينك، منشورات فريدريك رايدر وآخرون. الناشر، باريس، 1925.

Soleil شمس، منشورات فريدريك رايدر، باريس، 1928. وتضم أربع قصص: شيطان طريق الحق، والعلامة، ولون الصبار، والجنّتان.

Caïn كايّن أو قابيل، منشورات روبير دنويل وبرنار ستيل، باريس، 1930.

Pascuallette l'Algérien باسكوالات الجزائري، ألبين ميشال، باريس، 1934.

في الشعر، أصدر ديوان "أضواء" 1908 Lumières.

في المقال الصحفي: نشر في المجلة الإفريقية Afrique عناوين مثل، الجزائر في فرنسا L'algerie en France 28 juin 1927 وحرر تعليقات حول بعض الكتب والمقالات التي كان ينشرها الكتاب

المستوطنون معبرين عن مواقفهم وآرائهم حول الجزائر وقضايا الوضع الاستعماري.

كما جمع في كتاب واحد أسماء أشهر شعراء الجزائر المستعمرة تحت عنوان "منتخبات ثلاثة عشر شاعرا جزائريا" Anthologie: De treize poètes algériens عام 1920، وقام روبير راندو بكتابة مقدمة لهذه المختارات أثنى فيها بمساهمة أولئك الشعراء في الحياة الأدبية الجزائرية. وقد شارك لوكوك في مؤتمر الكتاب الاستعماريين عام 1931. بمناسبة المعرض الاستعماري بباريس وحصل على ميداليتين ذهبيتين مع الفريق الذي عمل معه نظير جهودهم المتعددة في مجال الفكر والأدب من أجل مصالح فرنسا في الجزائر، في حين أنه تخلف عن الاحتفال بمئوية الجزائر بسبب عدم التركيز على تمجيد عظمة فرنسا الإمبريالية ورسالتها الحضارية، إذ تمحورت كل أعماله على الإشادة والتمسك بالروح الفرنسية في الجزائر التي رسم لها صورة مثالية من خلال وصف مهمة الآباء البيض الحضارية .

في 1912 تعرف لويس لوكوك على المناضل الاشتراكي والنقابي شارل هاجل، ولقبه الحقيقي هاجلستين Charles Hagelsteen، حيث كون معه ثنائيا أدبيا، وتشارك الاثنان في بعض الأعمال والنشاطات الأدبية، لأحدهما يتشابهان في بعض الملامح، فكلاهما متشبت بأرض الجزائر، ومنخرط في حركة المتجزئين وساهم في نشر إيديولوجيتها، وكلاهما ولد في الجزائر ومات فيها صغيرا نسبيا لويس في سن 47 وشارل في سن 56. وقد أشاد لويس برتران بالشعور الوطني الذي تميز به الكاتبان تجاه الجزائر، وتركيز وصفهما على ملامحها الإفريقية، مشيرا إلى الإلهة "تانيت" التي ترمز إلى ديانة القرطاجيين: «يشير الإعجاب، لدى هذين المتعاونين، إحساس إفريقي حقيقي - حس خارق باللون والضياء - وكذا ما أطلق عليه حس الجنوب، يعني الافتتان بالفضاءات، في الوقت ذاته متوهجة بشكل مذهل، وكذلك هائلة وغامضة الجاذبية القائمة وتألّق حجاب تانيت» (Bertrand, 1925, 301).

لقد كان هاجل الذي ولد عام 1882 أيضا قاصا وشاعرا ألف مجموعات شعرية بعنوان "أشعار الحكاية الإفريقية"، Poèmes la légende africaine et praeteritum tempus، صادرة عن

منشورات فانتانا F. Fontana دون تاريخ، ومجموعة قصصية 1930 Drame africains، وكتاب عن معاداة السامية في الجزائر عنوانه "الخطر اليهودي 1934" Le péril juif، صدر بمدينة الجزائر عن دار نشر "أخبار إفريقية".

اشترك الكاتبان في تأليف مجموعة قصصية مع بعنوان Broumitche et le Kabyle بروميتش والقبائلي، نشرت في ميركور دو فرانس، 1920. تضم هذه المجموعة أيضا عناوين أخرى هي: الضبع El Dbah، والحريق L'incendie، وقيام الموتى la levée des morts، والشروق Shôrouq، ورواية "إمبراطورية العالم" 1923 L'Empire du monde، Sid Ghorab Surcorbeau سيد غراب سوركوربو، دار نشر ألين ميشال، باريس، 1923. قال عنهما لويس برتران في بيان "إفريقيتنا" مادحا مساهمتهما الثنائية الأخوية في مقدمة مختارات الروائيين الجزائريين: «كتب لويس لوكوك وشارل هاجل بالتعاون. نحن مدينون لهذه الوحدة الخصبة مجموعة قصصية: بروميتش والقبائلي، ورواية عادات ومغامرات: إمبراطورية العالم، وأخيرا أقصوصة نصف عجائية ونصف ساخرة، هجاء لاذع للحرب تسمى سيد غراب» (Bertrand, 1925, 300).

1.4 القضايا المطروحة في إنتاجهما السردى:

تطرق إنتاج لوكوك السردى إلى تصوير مختلف القضايا التي عرفها المجتمع الاستعماري بين الحرين العالميتين، حيث تصدر قضية استفادة المستوطنين من حق امتلاك الأرض والحصول على تسهيلات من الإدارة الفرنسية لخدمتها واستصلاحها حتى تضمن استقرارهم، كما عالج معها قضية الإدماج الثقافي بين سكان المجتمع متعددي الأعراق في مدينة الجزائر، ويتبدى اهتمامه بمسألة إدماج الأهلي في الطائفة الأوروبية شارحا أسباب فشلها من الناحية الاجتماعية، وتناول الزواج المختلط بين الأوروبيين والأهلي وبين استحالة تعايش الطائفتين لاختلاف حضارتيهما وثقافتيهما، وانغلاق كل واحدة على نفسها، فكتب مع صديقه شارل هاجل "بروميتش والقبائلي" (Lecoq, Hagel, 1921)، يصفان المجتمع الاستعماري المركب من أعراق متعددة. بروميتش صورة معبرة من صور المستوطن المستفيد من أملاك الجزائريين المصادرة، تلك الصورة التي تبدت عند الكتاب الفرنسيين الرحالين في القرن التاسع عشر، حصل على مزرعة خصبة في ضواحي مدينة الجزائر لكسب رزقه دون بذل جهد كبير، رجل إيطالي من أم مالطية، ميسور الحال وكسول وزير نساء، يستمتع بإغراء الفتيات الأهليات ويتحدث العربية. ومن خلال هذا العمل المشترك يسخر الكاتبان من توجه المسلم المخدوع الذي يختار الاندماج مع الأوروبي جاهلا انعكاساته السلبية على مقوماته الهوياتية، ثم ينتهي به الأمر إلى الشعور بالخيبة والألم بسبب الاختلاف الثقافي والتمييز العرقي. تعمل الفتاة ذهبية القبائلية خادمة عند السيدة ماريشال الفرنسية، وتتمظهر مع والدها الحاج مزيان بلا كرامة، حيث يستغل الأوروبي بروميتش بطل القصة سذاجتها وطمعها في المال لأن العائلة فقيرة وتعيش في كوخ حقير. يوظف الصور الجاهزة عن تفوق الرومي، وتخلف الأهلي كأثر من آثار انحطاط حضارته، فنسب إليه أخلاق سلبية كالسرقة، والكسل، وكره العمل، والتسول لكسب العيش، إذ يعتمد الحاج مزيان إلى السرقة ونهب ممتلكات الإيطالي لتوفير القوت لأولاده وزوجتيه.

"الحريق" 1921 القصة التي تدور فكرتها المحورية حول الحريق الذي شب في إحدى الغابات وأدى إلى تخريب الثروة الغابية بالجزائر. امتعض كومتالو الذي مثل شخصية المستوطن الكبير من حرص بعض المستوطنين الصغار المندادين بالمساواة بين الأوروبي والأهلي قائلا: «إن الإيديولوجيين، ودعاة الحرية الذين يذكرون في كل شأن الحق الطبيعي في المساواة، الشر الذي يمارسونه ضد هذا البلد، لا يمكن أبدا أن تعرفوه» (Yahiaoui, 2006, 5). وفي هذا الصدد ندد بجشع كبار الاستعماريين الرأسماليين الذين حولوا الجزائر إلى خزينة خاصة ينهبون أموالها ويفقرن الأهالي وصغار المستوطنين: «عوضا عن حماية هذا الشعب الضعيف، غير المؤهل للدفاع عن نفسه، يبدو أن الكولونياليين (الاستعماريين) لم يكونوا هنا إلا ليغتنوا وليشروا سريعا، بكل الوسائل» (يحياوي، 2017، 58)، وينشروا الرذائل في أوساط الشباب المسلم حتى يبقى أسيرا لها كما حصل للبطل هواري في "كل سائل يتبع الانحدار"، ولكن رجال الدين المسلمين كانوا لها بالمرصاد كي لا يتفشى الفساد الأخلاقي في المجتمع المسلم.

تفاقمت الأحوال الاجتماعية الصعبة أثناء الحرب العالمية الأولى فأثقلت كاهل المسلمين الجزائريين الذين عاشوا عيشة ضنكا ومعاناة شديدة لانعدام فرص العمل وغياب العدالة، إذ أنهكهم الفقر والجوع، واشتد القحط، فازداد عدد الفقراء والمتسولين لدى الشريحة الضعيفة من الشيوخ الكبار، والأطفال الصغار الذين حرّموا من التعليم والتكوين، بالخصوص ضحايا المجتمع الأناني والعلاقات المحرمة. أولئك الأطفال غير الشرعيين المهملين، والملقبين "يا ولد" حيث اكتظت بهم الشوارع يتسكعون حفاة، نصف عراة بثياب بالية، يمسحون الأحذية، أو يحملون أمتعة الغير لتوفير لقمة العيش، رغم ذلك كانوا يصنعون البهجة في الأحياء. يواصل الكاتب وصف مأساة الأهالي في "الجنة" Les deux Paradis من مجموعة "شمس" Soleil 1928، فبعد الشعور بضيق الحال يجعل الجزائري بلقاسم المندمج (متورني) يتجه إلى التسول ويفضل الراحة، بدلا من البحث عن العمل ليبين سلبية العرب واعتيادهم الكسل والخمول، وإن كان في الوقت ذاته يعبر عن أمله في انصهار الأهالي في الثقافة الفرنسية عن طريق التبشير لتحقيق الإدماج الثقافي وفرنسة الأهالي دون أن يمنح لهم الامتيازات. غير أن تمسك المسلمين بدينهم ووطنهم عقد القضية وعرقل الغاية، ففي قصة "قيام الموتى" يتناول لوكوك العلاقة الوثيقة بين مفهومي الإسلام والوطنية، حيث رفض الأهالي العمل عند الأوروبيين باعتبارهم كفارا بالدين الإسلامي ومحتلين وطنهم.

ونظرا لانتشار البؤس اضطرت النساء الأهليات إلى أن يعملن في بيوت الأوروبيين خادومات ذليلات مقابل فرنكات معدودات مثل فاطمة بوسنة في "خمسة في عينك"، وذهبية في "بروميتش والقبائلي". وتردت الأوضاع إذ سيطر الجهل في أرجاء البلاد بشكل مرعب حتى اعتقد الناس بالبدع والخرافات، واشتدت المعاناة حتى افتكت بهم الأمراض، فأدى الأمر إلى كثرة الإصابات والوفيات.

وقد عالج لوكوك هذه المسائل في رواية "خمسة في عينك" Cinq dans ton œil الحائزة على الجائزة الكبرى 1924، والتي احتضنت أحداثها أحياء القصبة الضيقة المستقبلية لعدد كبير من السكان الذين هربوا من الأرياف النائية بسبب الاضطهاد الاستعماري، وجو البؤس المتفشي بين قراها وسطوة الخرافات على الناس حتى على المثقفين، فالعنوان مستمدة عبارته "خمسة في عينك" من الموروث الثقافي الجزائري. ووصف

التقاليد والعادات العربية التي كان الجزائري الأهلي قد بدأ يتخلى عن بعض مظاهر ثقافته المحلية لما سنحت له الفرصة واحتك بالأوروبيين وتأثر بثقافتهم ولغتهم التي تعلمها في المدرسة الفرنسية، وعمل في المؤسسات الاستعمارية وإدارتها في شخصية سرير بن ململ المتطور. وانتقد التعصب الديني لدى المسلم المتشبه بدينه والمعز بتقافته في شخصية الطاهر رمضان ابن القائد وطالب الطب، واختار له اسم رمضان للدلالة على ثبوت هذه الصفة الدائمة لأنه دافع عن الحضارة العربية الإسلامية، وأشاد بتأثيرها على الحضارة الغربية. واستنكر الكاتب، كذلك، بعض العادات مثل الاعتقاد بالشعوذة والخرافات من خلال لالة عيشة زوجة بن ململ، وانتشار فكر المرابطة المنحرف، والأمية بين النساء، وتعدد الزوجات، وسخر من حجاب المرأة الأهلية المسلمة في مدينة الجزائر التي تغطي جسمها بالحايك الذي شبهه بالكفن، وشبه النساء تحت رداءهن الأبيض بالتماثيل. «...نساء مكفونات يشبهن تماثيل يرفعن رداءهن القطني قبل تدشينه الكتيب» (Lanasri, 1995, 119). علاوة على ذلك يبرز عدم اهتمام الأهالي بمظهرهم وصحتهم بسبب عدم العناية بنظافة أجسادهم، فالسيدة الفرنسية ريموند مارتان مضطرة بحكم عملها أن «تخدم الأهالي المسكون بالقمل وتستقبل الأيادي المتسخة لهذا البدائي، بما نقود سامة بقذارة شرقية الطابع» (Lanasri, 1995, 121).

وفي المقابل يتهكم من الأهالي المذبذبين نفسيا، ويصفهم باضطراب السلوك والتلمل في الشخصية واتخاذ المواقف في الظروف الصعبة، فقد جعل البطل سرير بن ململ، واللقب يتوافق مع موقفه المتناقض، يتململ بين الثقافة العربية والثقافة الغربية وفقا لأهوائه، فقد كان مثقفا يعمل موظفا لدى المستعمر في مكتب البريد، وتزوج امرأتين حسب الأعراف المحلية. فقد أراد الأهالي المندمج أن يتصالح مع الثقافتين، يحتفظ بهويته وأصالته التي نشأ عليها، وفي الوقت ذاته يستفيد من مزايا حضارة الآخر، لكنه يصطدم بالرفض الذي لقيه من الطرفين المتعارضين معا، فلا هو عربي مسلم ولا هو أوروبي مسيحي، فتزداد معاناته اليومية بسبب الحواجز الاجتماعية المنيعة التي وضعها كل طرف مخالف.

كانت رواية "مولوك" Moloch آخر عمل ألفه لوكوك في 1931، ونشرت بعد وفاته تحت عنوان "باسكوالات الجزائري" Pasculette l'Algérien في 1934، تناولت قضية هجرة عدد من الأوروبيين البائسين إلى الجزائر، وهم المستوطنون الذين أتوا من الضفاف الشمالية لحوض البحر المتوسط بحثا عن حياة دائمة ومستقرة. يدافع الكاتب عن حقوق المستوطنين الصغار الذين كانوا يشكلون أغلبية الأقدام السود من أصول غير فرنسية، وينادي بمزيد من الامتيازات لهذه الفئة المهمشة، ويشيد بالبطولة التي أحرزوها بفضل تقديم التضحية، والإسهام بالعمل والجهد من أجل إعمار المستعمرة وترقيتها. وتحسدت هذه البطولة في شخصية باسكوالات المستوطن «الذي وصف بأنه أحرق، بربري مريب، مثل أسلافه المسيحيين» (Khelouz, 2007, 115)، يرمز إلى الجيل الجديد الذي يحمل مزيجا من ملامح الجمال الفرنسي والإسباني، الجيل الثالث من المستوطنين المستقرين بالجزائر في مطلع القرن العشرين، والذي أراد المتجزئون أن ينشأ عن طريق الزواج المختلط بين الفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين الوافدين إلى الجزائر كدلالة على التمازج العرقي مثل الطالب سكفالي بوربون ابن سمسار الذي ينحدر جده من أصل إسباني في

رواية "خمسة في عينك"، وعلامة على التفاعل الثقافي والحضاري بين أعراق البحر المتوسط، والتأكيد، بالتالي، على التزعة المتوسطية التي تجمع بين سكان المستعمرة الذين يستعملون ألفاظا من كل اللهجات المنطوقة، ويتكلمون اللغات المعتمدة على سواحله، وهكذا فقد قدم لوكوك نفسه كاتبا استعماريًا مناصرا للإدماج (إدماجيا).

فالبطل باسكوالات أصله إسباني جاء من فالنسيا إلى الجزائر بعد أن ضاقت به الحياة بسبب الأزمة الخانقة في بلاده، فتزوج فرنسية وأنجب ستة أطفال، عائلة كبيرة واحتياجها كثيرة، تتطلب خدمة أرض سيده مقيمة في فرنسا، ويقتضي استصلاحها منهم عملا جادا، وكدحا طويلا من أجل توفير تلك المتطلبات. وبهذا المنظور فإن «باسكوالات الجزائري هو شخصية نموذجية للرواية الاستعمارية» (Lalaoui-2010,126) Chiali, التي تعتمد إقصاء الأهالي في شتى ميادين الحياة، وتنكر أبعاد شخصيتهم الثقافية، وتعتبرهم عبدا ومجرد خدم لدى المستعمرين الأوروبيين، وليس لهم الحق في العمل إلا كفلاحين في مزارعهم أو حراسا لبيوتهم، حيث تعمل فاطمة خادمة في بيت مستوطن ساعات طويلة دون هوادة. ففي أحد مشاهد الرواية يلتقي باسكوالات بأحد الأهالي الذين كانوا «يجوبون الطرق، ويبحثون عن العمل في المزارع، ليومين أو ثلاثة أيام لتوفير ما يتقوت به أسبوعا» (Bertrand,1925,301). وفي سياق تاريخي وسياسي عبر فيها الكاتب من خلال توظيف اسم الحاكم القديم "مولوك" كجد واحد مشترك عن حلم تكوين إمبراطورية فرانكو بربرية على منوال الفكرة التي أثارها روبير راندو في روايته "كسار البربري" 1921.

طرح لوكوك في رواية "كل سائل يتبع الانحدار" Tout liquide suit la pente موضوع الهجرة العكسية للأهالي المضطهدين من الجزائر إلى فرنسا عقب الحرب العالمية الأولى التي خلفت نتائج وخيمة أثرت على حياة السكان في الجزائر، فأصبحت الأغلبية من الشباب المسلم بلا وظيفة أو هدف، وبلا أمل مرتقب. فقد استحوذ المستوطنون الصغار على الوظائف البسيطة مثلما استولى المستوطنون الكبار على المناصب العليا والأراضي الشاسعة الخصبة وطردها منها أصحابها. وفي ظل هذه الظروف حاصرت سبل العيش الكريم الجزائريين فبدأوا يفكرون بجدية في مغادرة البلاد لتحسين أوضاعهم المادية وتطوير ذواتهم. ولتقليل الفجوة بين الأهالي والأوروبيين بسبب اختلاف الدين اقترح التوجه العلماني كحل مناسب لإدماج الطائفتين المتباينتين المسلمين والمسيحيين، أما معاداة السامية فقد تجلت في شخصية فيليب في "العلامة" 1928 وشخصية بن زاكون في "قيام الموتى".

شعر لوكوك بمأساة الوضع الاستعماري التي كان يعيشها الجزائريون (الأهالي) تحت وطأة الممارسات اللاإنسانية التي كان يرتكبها يوميا غلاة المستعمرين الذين يتمتعون بالحصانة من قبل الإدارة الاستعمارية، التي أصرت على تجاهل حقوق الجزائريين ظلما وعدوانا. رأى بأن المشروع الاستعماري مهدد بالزوال في الجزائر المستعمرة إن لم يتدخل المسؤولون بسرعة لتدارك الأخطاء الفادحة في تسيير شؤون البلاد. الأمر الذي جعله يدق ناقوس الخطر، فيبدي تعاطفه مع الأهالي ويندد بتلك الممارسات القمعية في قصة "شيطان طريق الحق" 1928 Le démon du bon droit. فقد تناولت قضية الصراع على حيازة الأرض، واستمرار مصادرة أراضي الأهالي عشية احتفال الفرنسيين بالذكرى المئوية على احتلال الجزائر. تدور أحداثها في بلاد

القبائل حيث عانى القبائلي محمد آكلي من انتزاع أحد المستوطنين أرضه عنوة، فلم يجد من يساعده ويتكفل بالقضية سوى الأستاذ دروي أحد المحامين الفرنسيين الذين جاؤوا من فرنسا المتروبوليتانية رغبة في الثراء، فيشفق عليه ويتولى الدفاع عن ملكية الأهلي المسلوقة، ويرافع ضد تجبر هذا المستوطن الأوروبي المتعطر، ولكن دون أن يحقق العدل نظرا للمكانة التي يحظى بها العاصب الذي يجسد عمليا نظرة الاحتقار إلى الأهلي، ويطبق مبدأ تكريس المشروع الاستعماري، لذلك قرر المحامي المحبط العودة إلى فرنسا بسبب كره المستوطنين لفرنسيي المتروبول. وتحسدت أيضا تيمة رافة وشفقة فرنسيي المتروبول على الأهالي في "الحريق" من خلال شخصية فيرون دو لوم الآتي حديثا من فرنسا، ولكن ما لبث أن اصطدم بخبت المستوطن الكبير كومتالو ومعاداته الشرسة للعرب.

وبصفته كاتب استعماري أعاد لوكوك طرح فكرة جوهريّة تأسست عليها حركة التجزؤ في صبغتها الإيديولوجية، وهي اللوتنة والرومنة، أي إحياء لاتينية الجزائر والتبعية للوجود الروماني والإرث الثقافي الروماني، واستعباد الشعب الجزائري من جديد من خلال مشروع فرنسا الإمبريالية عبر أقصوصة "الضبع"، تحدث فيها عن مدينة تيمقاد التي بناها الرومان في منطقة الأوراس، واصفا حالة ضبع مسكين يعاني شدة الجوع يحول في تيمقاد، تصور «الطبيعة، وشعور البهيمّة بالتعب إلى القدمين من كبرياء الحضارات مُهينة مهمتها، وهي هلاك تيمقاد الإمبريالية، حيث أصبحت وكرا لضبع ظمآن إلى دم بارد» (Bertrand, 1925, 301). وفي "الحريق" يشير على لسان البطل كومتالو إلى وجوب إحياء تاريخهم: «نحن من واجبنا، مصلحتنا، إعادة تشكيل أجمة الرومان من جديد، في التشابه مع فرنسا، هناك، إذ إنه من غير ذلك سنهلك، سنهلك جميعا» (يحياوي، 2017، 78). وعلى هذا الأساس «أمام هذا المظهر المتعدد الأوجه "للوتنة"، نفهم أن العديد من المقدمات والكتابات النظرية للكتاب الاستعماريين الفرنسيين فيه إصرار على العلاقة بين إنتاجهم الأدبي وجميع مشاكل فرنسا في ذلك الحين» (Fréris, 2003, 43).

بعد حدوث القطيعة بينهما، حاول شارل هاجل خوض تجربة الكتابة الأدبية منفردا، وها هو يؤيد فكرة القطيعة مع الأدب الغرائبي الذي أسسه كتاب الرحلة في بداية الفترة الاستعمارية في القرن التاسع عشر، فيتطرق إلى هذا الموضوع «في "المرأة الصفراء" إحدى قصص "مأس إفريقيا"، ويحذر أولئك الشغوفين بالغرائبية» (Lanasri, 1995, 121). من مغبة الوقوع في الأوهام من خلال بطله الرسام مورو الذي عشق فتاة أهلية تدعى رقية، فأغوته وأبعدته شدة الهيام بها عن الفن حتى أصابه العقم والعجز عن الإلهام. أغرته بكل الوسائل حتى تزوجها، لكن غلبة الشهوة لديها جعلتها لا تكتفي بزواجها، فراحت تستقبل الغرباء في بيتها في غياب زوجها الفرنسي مورو، فقد روج المستشرقون الغربيون في إطار إثبات دونية الشرق أخلاقا وفكرا أسطورة المرأة الشرقية الشهوانية منذ القرن الثامن عشر، ظهرت تجلياتها في العديد من أعمال التخيل السردية الغربي التي صورتها في أحوال اجتماعية متنوعة ووضعية أخلاقية مختلفة، قصد ضرب منظومة الفكر الإسلامي الشرقي.

إن الرواية الوحيدة التي ألفها لوكوك وهاجل سويا تحت عنوان "إمبراطورية العالم"، تتحدث تفاصيلها عن عملية تجنيد الجزائريين في الحروب التي خاضتها فرنسا باعتبارهم رعاياها، ولكن دون أن ينالوا

حقوقهم السياسية والمدنية، والفكرة التي تركز عليها «هي حلم فرنسا والإسلام الإفريقي متحدان في مقابلة المذهب المثالي ضد نظام الرأسمالية التجارية الأنجلوسكسوني... الكفاح في كل ناحية، والحرب معترفة بها ومرحبة بها كضرورة» (Bertrand, 1925, 301). تتلخص أحداث الرواية في التقارب الفرنسي الجزائري، من خلال مشاركة ضابط فرنسي برتبيه مع جزائري مسلم من سكان التوارق يدعى بركاني المجدد من أجل خدمة أهداف فرنسا الإمبريالية في حربها ضد الإنجليز. حيث أنه لما أصيب الضابط الفرنسي برصاص كتيبة إنجليزية أودى بحياته، كان الترقى الإفريقي بجانبه وهو يحتضر يذكره بإرادة الله، بينما يذكره الضابط بضرورة استكمال المهمة الإنسانية وهي سياسة التوسع الفرنسي في العالم ومنافسة إنجلترا في هذا المجال الاستعماري ضد بقية الشعوب المتخلفة.

4-الخاتمة:

يمكن القول إن الكاتين لوكوك وهاجل من الكتاب الاستعماريين الذين استوعبوا الخطوط الفكرية التي رسمتها حركة التجزؤ من أجل المحافظة على امتيازات الطائفة الأوروبية في الجزائر، وعرفا كيف يجسدان إيديولوجيا الاستعمار في كتاباتهم الواقعية، لاسيما منها الأجناس السردية كالرواية والقصة، تتمثل خصائصها فيما يلي:

- إحداهن القطيعة النهائية مع أدب السياحة الاستعمارية الذي سيطر على الكتاب الرحالة الفرنسيين حتى بداية القرن العشرين، وكان يقوم على الانفعالات والانطباعات العابرة الممزوجة بطابع الغرائبية والعجائبية الذي يثير المتلقي الغربي.

- الانفصال عن المتروبول الذي تختلف مواقف مفكره وكتابه ورؤاهم حول وضع الجزائر المستعمرة، وتبني رؤية جديدة تناسب الروح الجزائرية - الفرنسية المنبثقة من رحم المجتمع المهجين على شاكلة جنوب إفريقيا أو أمريكا.

- اعتماد الجنس السردى، القصصى والروائي، أكثر من الأجناس الأدبية الأخرى، والاتجاه الواقعي لتصوير مختلف المشكلات الخائفة، والتعبير عن القضايا الشائكة، واقتراح الحلول الملائمة للوضع الراهن.

- الانحياز إلى مصالح فرنسا الاستعمارية التي تضمن حقوق المستوطنين، وتأييد سياسة الهيمنة على الجزائر المستعمرة.

- تناول المواضيع التي تهم أهداف المستعمرة بعيدا عن المتروبول، والقضايا ذات الصلة بالمجتمع الاستعماري المركب والمتنافر في الجزائر، والذي يتكون من طوائف مختلفة ومتباينة بين الجزائريين المسلمين (الأهالي) والأوروبيين، واليهود، مثل قضايا الإدماج وانعكاسه، ومعاداة السامية، والمرأة المسلمة المنحرفة، وتعدد الزوجات، والزواج المختلط بين مختلف الطوائف، وتخلف الأهالي والتعصب الإسلامي، وأهمية التعليم وخطورته، والاختلاف الثقافي وتفوق الثقافة الأوروبية على الثقافة المحلية، ومشكلة تنصير الأهالي خاصة القبائل.

- إقصاء متعمد للمسلمين الجزائريين في ميادين الحياة الاستراتيجية لإثبات صورتهم النمطية السلبية، وإنكار وجودهم الفاعل في المجتمع رغم كثرة عددهم، والدفاع المستميت عن امتيازات الأقلية الأوروبية.

-إحياء فكرة الرومنة واللوتنة، من خلال تمجيد تاريخ الرومان وثقافتهم المسيحية، وتطبيق سياسة الإمبراطورية الرومانية الاستعمارية في الجزائر لتبقى تابعة لهم إلى الأبد، باعتبار أن فرنسا هي الوريث الشرعي للتراث الروماني واللاتيني.

5-قائمة المراجع

كتب:

-يحياوي، فضيلة. (2017). الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر ما بين الحربين. تر: عبد الحميد سرحان. المجلس الأعلى للغة العربية. الجزائر.

-Lanasri, Ahmed. (1995). La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres - Genèse et fonctionnement. Edition Publisud. Paris.

-Yahiaoui, Fadhila. (2006). Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerres, E.N.A.G/EDITIONS, Alger.

مقال:

-Bertrand, Louis. (1925). UNE MANIFESTATION LITTÉRAIRE, Notre Afrique, Revue Des Deux Mondes, Numéro : Mai.

مجلة:

-Lecoq Louis et Hagel, Charles. (1920). Broumitche et le Kabyle. Mercure de France. Paris. No 536, 15 Octobre.

أطروحة:

-Khelouz, Nacer. (2007). Le roman algérien de l'entre-deux-guerres en lisant Robert Randau et Abdelkader Hadj Hamou, thèse PhD, Université de Pittsburgh.

مواقع إلكترونية:

-Fréris, Georges. (2001). L'Algérianisme, le mouvement du Méditerranéisme et la suite...In : Méditerranée : Ruptures et Continuités. Actes du colloque tenu à Nicosie les 20-22 octobre, Université Lumière-Lyon 2, Université de Chypre. Lyon : Maison de l'Orient et de la Méditerranée Jean Pouilloux, 2003. (Travaux de la Maison de l'Orient méditerranéen, 37)

www.persee.fr/doc/mom_1274-6525_2003_act_37_1_949

-Lalaoui-Chiali, Fatima Zohra. (2010). « Stéréotypes, écrits coloniaux et postcoloniaux: le cas de l'Algérie », Itinéraires [En ligne], 2010-1 |, mis en ligne le 01 mai 2010, consulté le 09 juin 2022. URL: <http://journals.openedition.org/itineraires/2125>; DOI: <https://doi.org/10.4000/itineraires.2125>

-Feraoun, Mouloud (1962). Journal 1955-1962, Paris, éditions du Seuil, , p. 187. Cité par: Eveline Caduc, « Postérités d'Albert Camus chez les écrivains algériens de Kateb à Sansal », paru dans Loxias-Colloques, 4. Camus: "un temps pour témoigner de vivre"

(séminaire), Postérités d'Albert Camus chez les écrivains algériens de Kateb à Sansal, mis en ligne le 08 septembre 2014, URL : <http://revel.unice.fr/symposia/actel/index.html?id=686>.